



الحمد لله.. والصلاة والسلام على رسول الله.. وبعد..

إذا كان العلماء قد حدثونا عن الإعجاز البلاغي والبياني في القرآن الكريم فأسهبوا وأطنبوا، وإذا كان المفكرون قد وصلوا إلى ما وصلوا إليه من اكتشافات لألوان من الإعجاز العلمي في كتاب الله فأبدعوا ونوعوا، وإذا كان الكثيرون قد تطرقوا للحديث عن الإعجاز التشريعي فصرّفوا فيه القول وتفننوا؛ فإنّ ثمّ لونا من ألوان الإعجاز القرآني قلّ من تطرق إليه، والبعض القليل الذي عالجه لم يعره الاهتمام اللازم لاستكناه أسرار القرآن واستخلاص الحكم والغايات العظام من خلال هذا اللون من الإعجاز.

والإعجاز يتمثل في اشتمال القرآن على موضوعات متكاملة متماسكة تشكل مجموعها منظومة معرفية مفاهيمية تنتظم فيها هداياته، ومكمن الإعجاز هنا في أنّ القرآن " نزل مفرقا منجماً ولكنه تم مترابطا محكماً، وتفرقت نجومه تفرق الأسباب ولكن اجتمع نظمه اجتماع شمل الأحباب، ولم يتكامل نزوله إلا بعد عشرين عاما ولكن تكامل انسجامه بداية وختاما ... يمضي العمر الطويل والرسول على هذا العهد يأتيه الوحي بالقرآن نجما بعد نجم وإذا القرآن كله بعد هذا العمر الطويل يكمل ويتم وينتظم ويتآخى ويأتلّف ويلتئم ولا يؤخذ عليه أدنى تخاذل ولا تفاوت، بل يعجز الخلق طرا بما فيه من انسجام ووحدة وترابط: **{كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}** " مناهل العرفان في علوم القرآن - محمد عبد العظيم الزرقاني - مطبعة عيسى البابي الحلبي - ط : الثالثة - 62-1/61

فلو تناول الباحث موضوعاً من موضوعات هدايات القرآن، وجمع فيه الآيات التي تفرق نزولها على مدى الثلاث وعشرين عاماً، والتي نزلت منجمة على الوقائع المختلفة، ومرتبطة بأسباب النزول المتباينة؛ لوجدها تشكل موضوعاً متكاملاً متماسكاً، فسكنت - عندئذ - خواطره، واستسلم فؤاده لحداء هذه الآية: **{كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}**.

وهناك تمكين آخر يمضي على سنة الاختبار والامتحان والابتلاء والفتنة، من ذلك ما أعطاه الله تعالى لسليمان عليه السلام فاجتاز الابتلاء ونجح في الاختبار، فهذا هو في ذروة التمكين يتذكر الحقيقة التي بها نال التمكين: {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ} ومن ذلك ما أعطاه الله بني إسرائيل فسقطوا في التبديل فنزع الله منهم وأدال عليهم، قال تعالى: {وَقَطَعْنَا لَهُمُ فِي الْأَرْضِ مَمَّا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} أي اختبرناهم بالنعم والنقم (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) للبيضاوي - دار إحياء التراث العربي - بيروت ط الأولى 3/40 فالحسنات هي النعم التي إن أعطيت لأمة كانت مظهراً من مظاهر التمكين وثمرَةً من ثمراته، ومنه ما أشار إليه قول الله تعالى: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ}.

وهناك تمكين يمضي على سنة الجزاء والمكافأة ومقابلة الإحسان بالإحسان، وهذا هو عين ما أعطاه الله تعالى ليوسف عليه السلام: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. وَلَاجِرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} فأجر الإحسان جاء منه جزء معجل في صورة التمكين، لذلك أكمل بعددا: " ولأجر الآخرة خير" ونلاحظ هنا أن التمكين الذي أعطاه الله تعالى ليوسف نوع غير التمكين الذي أعطاه الله لسليمان - عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام - لأن يوسف وعد التمكين ولم يطلبه، قال تعالى: {فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} أما سليمان فطلب التمكين، قال تعالى: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}

فأعطى الله التمكين ليوسف بعد أن اجتاز الابتلاء جزاء لإحسانه، وأعطى سليمان التمكين ابتلاءً فاجتاز الابتلاء.

وبمجرد أن تتقرر في الذهن هذه الحقائق يكون السؤال المرشح للوثوب على المشهد هو السؤال العملي: وما هو سبيل التمكين لهذه الأمة؟

والإجابة على هذا السؤال وردت في قصة يوسف عليه السلام، فسورة يوسف نزلت ضمن مجموعة من السور التي تهيء الأمة الإسلامية للتحوّل الكبير من الاستضعاف إلى التمكين، ومثلها سورة القصص التي هبت منها نسائم البشرية: {ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض}.

والحكمة الجامعة لكل الدروس المستفادة من قصة يوسف عليه السلام هي أن طريق التمكين يكون بالاستعلاء على الفتنة، أجل: الاستعلاء على الفتنة، فلقد تعرض يوسف عليه السلام لصنوف المحن وصروف الفتن؛ فاستعلى عليها جميعاً، وأيّ تعبير عن وضع يوسف معها بغير تعبير الاستعلاء لا يوفيه حقه، ولا يصور المنهج تصويراً دقيقاً، والفتن التي تعرض لها يوسف عليه السلام متعددة ومتنوعة، فمن فتنة الاضطهاد والإبعاد والتغريب إلى فتنة النساء والشهوات، ومن فتنة السراء والدعة إلى فتنة الضراء والسجن والتضييق، ومن فتنة العبودية والرق بثقلها إلى فتنة السلطة والتغلب والظفر بالخصوم، وهكذا تقلب في ألوان الفتن، فلم يبد منه تجاهها إلا الاستعلاء.

فليتأمل من كان له قلب يعي؛ كيف استعلى يوسف على فتنة امرأة العزيز ثم على فتنة النسوة اللاتي اجتمعن عليه في الإغراء والتهديد؟! وليستشعر من كان له شعور ينبض ذلك الموقف الذي يموج بالفتنة العارمة، امرأة ذات منصب وجمال تراوده وقد غلقت الأبواب وهيات الأجواء، وأقبلت عليه بشبق عارم: {هبت لك} وهو شاب ممتليء حيوية ونضارة، في عنفوان

الشباب وذروة الفتوة، وليس وراء جدران السجن من يكثرث بالرزيلة أو يلقي لها بالاً، كيف استعلی وطار على متن هذا الشعار الصاعد في درج الشرف والنيل: {معاذ الله} ثم لما صارت المرأة جماعة من النسوة وصارت الفتنة جملة من الفتن واجتمع مع الإغراء تهديد وتبجح؛ لم يزد ذلك إلا تحصناً يعاند الفتنة ويراغمها: {رب السجن أحب إليّ}.

وكان السجن بفتنته وضغطه، وبما يملأ جوانبه مما لا تتسع إلا له من ظلمة وكآبة وهمّ وغمّ وإياس وإبلاس، فلم يكن منه تجاه ذلك كله - وفوقه الشعور بالقهر والظلم - إلا الاستعلاء، انظر إليه وهو ينغمس فيما لا ينغمس فيه إلا صاحب قلب سالم من الأحزان خال من الهواجس والوساوس: {ياصاحبي السجن أرباب متفرقون خير من الله الواحد القهار، ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوهما أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون}.

ولا يقف الأمر عند هذا الحدّ من أنفة الإيمان واستعلائه حتى يتجاوزه صاعداً في درج العزة الإيمانية؛ فها هو يأتيه فرج لم يتكلفه ولم يسع إليه: {وقال الملك ائتوني به} إلا أنه لا يبدو متهافتاً على الخلاص من السجن، بل يرى أن براءة ساحته مما علق بها من تهم مزيفة أولى من فكاكه من السجن: {ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي يكيدهنّ عليهن}.

ثم جاءت فتنة من نوع جديد، حيث تمكن يوسف ممن أساءوا إليه، واستكانوا له، ولم يصدر منه إلى فيض الرحمة والعفو والسماحة: {لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين} وبلغ الأمر إلى حدّ أن يشفع لهم لدى أبيهم، ويعتذر عنهم بهذا التبرير الذي يرفع الحرج عنهم بأسلوب مترع بالكرم والنبل: {وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي} ثم تأتي فتنة تمام الملك والعزّ والتغلب بتحقيق الرؤيا وسجود الجميع له؛ فإذا به يخر من داخله ساجداً لمولاه: {رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث، فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين}.

هكذا كان يوسف عليه السلام في كل مرحلة من مراحل سيرته مستعلياً على الفتنة بكل صنوفها وصروفها؛ فكان التمكين الذي صعد معه من درج إلى درج، وارتفع معه من أفق إلى أفق حتى بلغ منتهاه المقدر له من اللحظة الأولى: {وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك}.

ومن الصعب أن يرتقي المؤمنون إلى مستوى الاستعلاء على الفتنة ليلبغوا به التمكين إلا إذا استكملوا شرط التمكين للأمة المسلمة، الذي يرفعهم إلى هذا الأفق السامق: وهو شرط واضح غاية الوضوح: {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون} فهو الإيمان والعمل الصالح وعبادة الله الخالصة من الشرك والسلامة من كل أنواع الكفر والفسق.

وليس وراء ذلك إلا سؤال واحد، التصور المحيط بأطراف الموضوع يحتمه، ويقضي بأنّه ختام الأسئلة: ما هي الواجبات المترتبة على حصول التمكين للأمة المسلمة؟ والجواب على هذا السؤال يأتي شافياً وافياً وإن كان مجملاً موجزاً، وذلك في سورة إبراهيم: {الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور}.

هكذا جاء موضوع التمكين وافياً شافياً، يجيب على كل الأسئلة، ويحل كل العقد الفكرية، هذا برغم أن الآيات التي عالجت

الموضوع وردت في القرآن مفرقة في أنحائه موزعة في أقطاره، منجمة على وقائع وأحداث تفرقت في الأعوام والشهور وتقلبت في مختلف الأحوال والظروف، وهذا إن تكرر في أغلب ما تعالجه من موضوعات فلا شك أنه لون من ألوان الإعجاز فريد، يضاف لذلك أن الوصول إلى الموضوعات الكاملة يبني منظومة مفاهيمية غاية في الإحكام.

لكن هل يجوز الاستعانة بالسنة في ذلك أم لا؟ هذا هو موضع الاجتهاد.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل..

المصادر: